اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح٣ | الآيات [١٧ : ٢٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نكمل إن شاء الله ما بدأناه في سورة الأنعام. توقفنا عند قول الله عز وجل: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير * وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير}[الأنعام ١٧-١٨].

معاني معرفة الله عز وجل:

بعد قول الله عز وجل {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير}[الأنعام ١٧]. قلنا هذه الآيات حقًا تعتبر سيل هادر من معاني الربوبية ومعاني معرفة الله عز وجل، تقذف في قلب الإنسان قوة تجعل الإنسان يستطيع أن يواجه أي باطل. لذلك عندما تقرأ الآيات من بداية {قل لمن ما في السماوات والأرض}[الأنعام ١٢]وتعيدها أكثر من مرة أو تعيش معها تجد أن هذه الآيات تخبرك؛ لمن ما في السماوات والأرض؟ الملك له وحده سبحانه وتعالى {وله ما سكن في الليل والنهار}[الأنعام ١٣] هو سبحانه وتعالى يدبر الحركة والسكون في الكون {أغير الله أتخذ وليا}[الأنعام١٤]؟ هو الولي سبحانه وتعالى هو {فاطر السماوات} هو الذي يدبر الطعام هو الرزاق {يُطعِم ولا يُطعَم}، هو الذي يصرف عنا عذاب جهنم، هو الذي يملك النفع والضر، هو الذي يقهر عباده سبحانه وتعالى، هو الحكيم، هو الخبير سبحانه وتعالى.

هذه الصفات التي وصفت الله عز وجل في سيل هادر من معرفة الله قلما يكون موجودًا في القرآن بهذا الشوط الكبير... قد موجودًا في بعض السور وغالبًا يأتي بعد هذا الشوط تحدي! وكأن الإنسان اكتسب قوة من هذه المعاني، ولذلك بعد هذه المعاني يقول الله عز وجل: {قل} اذهب وأخبرهم {قل أي شيء أكبر شهادة..}[الأنعام ١٩] أنت علمت أن الله المالك الملك الولي، فاطر السماوات والأرض، يطعِم ولا يطعَم، يملك النفع والضر، وهو القاهر، هو الحكيم والخبير، هذه المعاني حينما امتلأ بها قلبك وانسكبت في قلبك أصبحت تستطيع أن تواجه العالم وتقول: أنا معي الحق! {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم}[الأنعام ١٩]، وسنتكلم في معنى كيف يشهد الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم أنه على الحق.

الشاهد؛ أريد أن أقول أن هذه الآيات هي سيل هادر من معرفة الله عز وجل من معاني تطوف في مخاوف النفس وتسدها من كل الجوانب؛ أنه لا يملك لها النفع والضر إلا الله عز وجل. وهذا أشبه بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك)[1]، ولم يقل: أعوذ برضاك من سخط فلان حتى لا يؤذيني! بل قال: (أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك)، لم يقل: وبمعافاتك من عقوبة فلان! لا؛ هو لا يرى في الكون إلا الله عز وجل، فلا يعافي ولا يعاقِب إلا الله، لا يضر ولا ينفع إلا الله. فهو يستعيذ برضا الله من سخط الله، ويستعيذ بمعافاة الله من عقوبة الله. وفي النهاية انتقل من رؤية الصفات إلى رؤية الذات، وهذه أعلى مرتبة الإحسان (وبك منك) أي أعوذ بك منك (لا أحصي ثناءً عليك) تدرج في مرتبة الإحسان؛ أن تعبد الله كأنك تراه، وتصل إلى مرحلة أنك لا ترى في الوجود إلا أفعال وصفات الله سبحانه وتعالى.

وهذه طريقة أهل السنة وتختلف عن المذهب الذي يسمونه مذهب الفناء، الذي قاله بعض غلاة الصوفية وفكرته: وحدة الوجود وأنه لا يوجد في الوجود إلا الله حتى المخلوقات! لكن كأهل السنة نحن نقول أن الفاعل الحقيقي لكل شيء هو الله عز وجل.

القاهر:

لذلك عند قول الله عز وجل: {وهو القاهر فوق عباده} حقيقة القهر: أغلب معاني القهر تدور على الإرادة، وأن الله عز وجل يكسر إرادة من يريد -سبحانه وتعالى-، ولا إرادة تتم في الكون إلا برضاه -سبحانه وتعالى-. قال الإمام البقاعي: "{وهو القاهر} أي "الذي يعمل مراده كله ويمنع غيره مراده إن شاء" أي أن الله عز وجل يفعل ما يريد لكن العبد لا يتحقق من مراده إلا ما شاء الله، ومثلها {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد}[الإسراء ١٨] ليس كل ما يريده من الدنيا يأخذه، ليس كل الناس تأخذ في الدنيا {عجلنا له فيها} بل القاعدة التي تضبط كل آيات السعي في الدنيا هي {ما نشاء لمن نريد} فهذه تتعلق باسم الله القهار، بأنه يفعل مراده كله -سبحانه وتعالى- ويمنع مراد العبيد إن شاء -سبحانه وتعالى-. وقمة القهر صُوِّرَت في الآية بكلمة: {فوق عباده} كل الناس عباد! فهو القاهر -سبحانه وتعالى- يفعل مراده كله -سبحانه وتعالى- فقال {فوق عباده}. فالإمام البقاعي يقول: "وكل ما سواه عبد ولما كان في القهر ما يكون مذمومًا.." أي أحيانًا يكون هذا القهر مذمومًا،

[1] عن عائشة أم المؤمنين:(اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك). الألباني (١٤٢٠هـ)، صحيح الجامع ١٢٨٠. [صحيح].

قال: "{وهو الحكيم} أي يفعل ذلك عن حكمة سبحانه وتعالى فلا يوصل أثر القهر إلا لمستحقه.."، أي أن الله –سبحانه وتعالى– يقهر ما يشاء بحكمته –سبحانه وتعالى– لأنه يستحق أن يُقهر، "وأتم المعنى بقوله {الخبير}.." هذه الحكمة مبنية على خبرة "الخبير أي بما يستحق كل شيء".

وقال الإمام ابن عاشور معنى آخر جميل جدًا في صفة القهار قال: "صيغة {وهو القاهر} تفيد القصر، أي لا قاهر في الحقيقة إلا الله.."، لا يستطيع أن يقهر على الحقيقة إلا الله. أي لو هناك أحد معه أسلحة وبَطَش ويقول أنا أقهر المواطنين فقهره هذا محدود؛ محدود في أشياء معينة، محدود في أزمنة معينة، محدود بأدوات معينة! لكن الله عز وجل يقهر العباد في كل شيء. يقول الإمام ابن عاشور: "لأن قهر الله تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذًا" لماذا المقهور لا يستطيع أن يخرج خارج دائرة أن الله يقهره؟ "لأن الله عز وجل قهره بأسباب لا يستطيع خلق ما يضادها.." كيف؟

الله عز وجل قهر العبد بالنوم مثلًا فهو مضطر لأن ينام، فالعبد لا يستطيع أن يخلق شيء عكس النوم يريح به نفسه، لا يستطيع! الله عز وجل قهر العباد بالموت، فمهما بلغ العباد من العلم لن يستطيعوا أن يخلقوا شيء يُصلح لهم قضية الموت، لن يستطيعوا، فالله عز وجل قهرهم بأسباب لا يستطيعون خلق ما يضادونها، كما في النوم والموت وغير ذلك. يقول: "والله عز وجل في حياة الناس جعل لهم صور للقهر منها أنه يُوجِد –سبحانه وتعالى– ما لا يريدون وجوده كالموت، ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل لمن يريد أن يتعلم" مهما بلغ الإنسان من علم سيظل فيه جهل.

لذلك الآن وبالرغم من أنه عصر التطور العلمي إلا أن جزء كبير من مخ الإنسان غير معروف عند الأطباء حتى الآن! فالأداة التي يفكر بها الإنسان ويصل بها إلى العلم جزء كبير منها ليس مفهوم كيف يعمل؟! وهناك عمليات كثيرة تتم داخل المخ ليست مفهومة أبدًا. حتى أن الإنسان نفسه يجد أن هناك أمور يستطيع القيام بها وحين يكرر القيام بهذه الأمور لا يستطيع؟! الله عز وجل قهره في ذلك فيحاول أن يمشي يجد قدمه ثقيلة جدا ولا يستطيع تحريكها، يمكن أن يصاب بجلطة، فالإنسان يمكن أن يُقهر بأقل الأسباب؛ ببعوضة! مثلما قلنا يُهلك الله يأجوج ومأجوج بالنغف، ويدمر سد بفأرة. إذًا قهر الله لا حدود له. وتجد أن العلماء ركزوا فيه على معنى الإرادة؛ أن الله يمنع إرادة العباد إذا شاء أن يمنع ذلك، وهذا أحد معاني قول الله عز وجل: {والله غالب على أمره}[يوسف ٢١]، وأحد معاني قول الله عز وجل: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه}[الأنفال ٢٤].

ماذا يعني قوله تعالى: {يحول بين المرء وقلبه}؟ ذكر الإمام ابن الجوزي -في كتابه زاد المسير- ما يقرب من عشرة أقوال في هذا المعنى {يحول بين المرء وقلبه}؛ غالبها يدور حول معنى أنه يحول بينك وبين تفكيرك، بينك وبين حياتك، بينك وبين عزيمتك، بينك وبين مرادك، بينك وبين مشيئتك، بينك وبين أمنياتك. إن الله عز وجل قادر أن يمنعك من تحقيق أمنيتك، وقادر أن يجعلك لا تستطيع التفكير، وقادر أنه يجعلك جاهل، وقادر أنه يجعلك بعد ما فهمت وعلمت لا تستطيع التنفيذ، وقادر أن يجعلك وأنت تنفذ تخطئ، وقادر أن يجعلك بعدما فهمت وعلمت ونفذت تُفسد ما فعلته، فيسلط عليك جند من جنوده، مثل الغباء مثلا!.. مثل ما نرى في بعض الناس الآن يُسلط عليهم الغباء فيدمرون ما فعلوا، وما حققوه من مكاسب بغبائهم {يخربون بيوتهم بأيديهم}[الحشر ٢]!

إذًا؛ قهر الله عز وجل لعباده له صور غير متناهية لأن الأسباب التي يتم بها ذلك مخلوقة، وخلق الله غير متناهي! لذلك يقول الله عز وجل: {وما يعلم جنود ربك إلا هو}[المدثر ٣١].

وكلمة {وهو القاهر فوق عباده} قد يظن البعض أنه إذا فشل فيأتي بأحد غيره ليصلح ما أفسده هو، لكن، لا! {وهو القاهر فوق عباده} وهذا يشمل جميع العباد. وقال الله تعالى: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير}[الأنعام ١٧] قد يقول؛ هذا إذا أصابني الله بالضر، فماذا إذا أصابني بالضر إنسان وأضر بي؟! فهنا يخبرنا الله عز وجل أنه هو سبحانه الذي يملك الإرادات ويقدر بقدرته سبحانه وتعالى وبحكمته أن يمنع مراد أي إنسان. وأكثر سورة بها جمع لموضوع قهر الله عز وجل للإرادات وأن الله عز وجل يحقق ما يريد هي سورة يوسف في قول الله عز وجل: {والله غالب على أمره}[يوسف ٢١] أراد أخوة يوسف ليوسف شيئًا وأراد الله ليوسف شيئًا فكان ما أراده الله. وأرادت امرأة العزيز ليوسف شيئًا وأراد الله عز وجل ليوسف شيئًا فكان ما أراده الله. كلما اجتمع عليه قوم أو أي شيء كان ما يريده الله عز وجل له، وأخرج له المنحة من المحنة بقدرته سبحانه وتعالى.

إذًا؛ {وهو القاهر فوق عباده}[الأنعام ١٨] هذه الآية تجعل الإنسان يؤمن بأن الله عز وجل يملك السماوات والأرض، وأن الله عز وجل هو الولي فاطر السماوات والأرض، وهو الرزاق، وهو يملك النفع والضر، سبحانه وتعالى يملك كل شيء ويقدر على كل شيء ويقهر كل شيء، وهذا القهر على

الإطلاق قهر الله عز وجل على الإطلاق {وهو القاهر فوق عباده} أي لا يخرج أحد من خلقه عن قهره سبحانه وتعالى، مهما أوتي من قوة ومهما تمكن من الأسباب.

ومثلما قلنا في المجلس الأول في تفسير قول الله عز وجل: {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم}[الأنعام ٦] دائمًا كل إنسان يمكَّن له في بعض الأسباب يظن أن هذه الأسباب لن تُقهر، وشعار كل شخص يمكَّن في سبب من الأسباب هو {ما أظن أن تبيد هذه أبدا}[الكهف ٣٥]! {وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم}[الحشر ٢] ما هي الحصون التي تمنعهم؟ كل شخص يخطط لأشياء معينة يظن أنها تمنعه من قهر الله عز وجل له! لكن مثلما قلنا دائمًا النتيجة تكون {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا}[الحشر ٢].

الإنسان ليس مجرد عقل فقط أو سمع أو بصر لكنه مخلوق كامل له حواس ومشاعر. القرآن يخاطب الإنسان كبني آدم كامل، فلا يخاطب عقله فقط أو سمعه فقط أو بصره فقط، ولكن يخاطبه كإنسان يمتلك مشاعر خوف ورجاء وطمأنينة وحب وسكون وخوف من المستقبل وحزن على الماضي، فالقرآن يخاطب الإنسان كإنسان. هذه الآيات تعالج كل المشاكل النفسية التي يمكن أن تصيب الإنسان الذي يختار طريق صعب، وطريق الأنبياء هو طريق مليء بالابتلاء، والذي يظن أنه يسير في طريق الأنبياء ولن يُبتلى فهذا ظنٌ خاطئ! {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا}[الأنعام ١١٢] فمن يسير على طريق الأنبياء لا بد له من أعداء، وهذا واقع.

إذًا هذه الآيات تجعلك تخوض المعركة –معركة الحق والباطل– بنوع من الطمأنينة.

لذلك الشوط الأول من سورة طه: {ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى}[طه ٢-٨] لماذا هذه المعاني؟ لأنه عندما يقول له {اذهب إلى فرعون إنه طغى}[طه ٢٤] يذهب من فوره، لكن بدون هذه المعاني إن قال له {اذهب إلى فرعون إنه طغى} سيرفض الذهاب ويقول إنه طاغية يستطيع أن يؤذيني ولن أذهب إليه، كيف أذهب له وهو طاغية! لا أستطيع الذهاب إليه!. لذلك سيدنا موسى بعد هذه المقدمة علم أن الذي يقع في قلبه هذه المقدمة –من معرفة الله– يستطيع أن يواجه فرعون ولهذا طلب طلبات حتى لا تضيع هذه المعاني منه، وهذه الطلبات الطويلة {رب اشرح لي

صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري{[طه ٢٥-٣٢] لماذا كل هذا؟ {كي نسبحك كثيرا}[طه ٣٣] التسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص. أكثر المواقف التي قد تجعلك تسيء الظن بالله أن تتعرض لمواقف الضر، فمواقف الرخاء تنسيك الله، ومواقف الضر تجعلك -عياذا بالله-تسيء الظن بالله، وتقول لماذا يا رب ؟! لذلك سيدنا يونس عندما التقمه الحوت قال: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}[الأنبياء ٨٧] حتى لا يأتي في خاطره سوء ظن بالله سبحانه وتعالى فالتسبيح تنزيه. فدائمًا عندما تأتي الإنسان خواطر سوء ظن يسبح الله ينزه الله عن كل نقص.

فإذًا؛ سيدنا موسى سيتعرض لمواقف فيها ابتلاء وضُر فيريد معاني سورة طه تظل معه دائمًا، فطلب وسائل مساعدة لكي لا ينسى هذه المعاني في الطريق. وبالتالي نسيان معاني {أغير الله أتخذ وليا}[الأنعام ١٤] -الموجودة معنا في بداية سورة الأنعام أو في بداية سورة طه- تحول العمل لنصرة الدين المليء بالبلاء إلى شقاء. وتَذَكُّر هذه المعاني دائمًا يحول العمل للدين في الطريق المليء بالبلاء إلى لذة ومتعة.

مرة أخرى؛ هذه المعاني المليئة بمعرفة الله وخاصةً في قضية النفع والضر، تلمس القلب لمسًا مباشرًا. أنت لو ذهبت لأناس يغرقون في المعاصي -والعياذ بالله- مثل الزنا والمخدرات، وكلمتهم عن أن الله عز وجل يُصلح لهم حياتهم وبيده أن يُفسد عليهم حياتهم يتأثرون. النفع والضر يلمس القلب لمسًا مباشرًا.

لذلك أكثر موقف كان يجعل المشركين عباد الأصنام يقولون: "يا رب" متى؟ في الضر، في منتصف البحر -وإن كان الآن للأسف الناس تستمع للأغاني في منتصف البحر-، في منتصف البحر والموج يلعب بهم ويكاد أن يهلكوا يرمون أي شيء؛ يرمون الأصنام. وكما يروى في السير في قصة إسلام عكرمة لما ركب البحر هربا من النبي صلى الله عليه وسلم حين قال (لو رأيتموه متعلقًا بأستار الكعبة فاقتلوه)[٢]، فهرب وركب البحر لعبت الأمواج فالناس في السفينة ظلوا يرمون الأصنام في البحر، قال لهم ماذا تفعلون؟ أليست هذه أصنامكم؟! قالوا: يا عكرمة هذا يومٌ لا ينفع فيه إلا من في السماء، فسأل نفسه: ما الفرق بين هذا اليوم وغيره! فعاد... هذا كان يروى أنه كان من أسباب إسلام عكرمة بن أبي جهل، وسبحان الله قاتَل لنصرة دين الله حتى قُتل شهيدًا!

[٢] عن سعد بن أبي وقاص:(لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الإ أربعة نفر وامرأتين، وقال: "اقتلوهم وإن وجدتموهم معلقين باستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن أبي السرح.." . ابن الملقن(٧٥٠هـ)، البدر المنير ١٥٣/٩. [صحيح]

الشاهد؛ إن هذه المعاني تلمس القلب لمسًا مباشرًا، بعد تأصيل هذه المعاني وبيان أن الذي يملك الأسباب -سبحانه وتعالى- ويملك النفع والضُّر وهو القاهر، أي وهو القاهر وحده -سبحانه وتعالى- فوق عباده، وكل ذلك بحكمة وخبرة {وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير}[الأنعام١٨] من أسماء الله الخبير، ما معنى الخبير؟

ما معنى الخبير؟ متى يُقال على أحد من أهل الدنيا خبير؟ متخصص في شيء معين! هل فقط التخصص في شيء معين؟ أي لو أنا حديث التخرج وتخصصت في شيء معين يُقال عليَّ خبيرًا؟ لا، عنده خبرة، هذه الخبرة يكتسبها بالوقت، مارس أشياء كثيرة، فيكون فعل أشياء كثيرة وأخطأ، وجرب وأخطأ، وجرب ثم استطاع فعلها، فعلها أول مرة ثلاثين بالمائة صحيحة، ثم خمسين بالمائة، ستين في المائة، تسعين في المائة، ثم تسعة وتعسين في المائة... هذا نقول عنه خبير؛ لأنه مارس كثيرًا، الإنسان ليفعل شيئًا بإتقان لا بد أن يجرب فعلها كثيرًا، لا تأتي معه من أول مرة متكاملة، أي هذه السيارة التي تركبها، أنت لو نظرت لأول مرة حاولوا يصنعوا السيارة تضحك، أو الطيارة أو أي شيء لا يظهر بصورته التي نريدها في النهاية إلا بعد تجارب.

لكن الله عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، الشيء الذي لم يوجد لو وُجِد كيف كان سيكون، ربنا يعلم سبحانه وتعالى؛ لذلك الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى التجرِبة، الله عز وجل يعلم أعلى شيء كيف يكون في الإنسان فيخلقه -سبحانه وتعالى-.

لذلك النظرية الداروينية تبني فكرتها: أنها تقيس قدرة الله عز وجل على قدرة الإنسان... أنه يحتاج إلى تطور، وأنه لا يمكن الإنسان يُخلق من أول مرة بهذا الخلق العظيم، وأنه يحتاج سواء خلية أميبا أو أنه يمر بمراحل الحيوان أو غير ذلك! لكن الله عز وجل خلق آدم وصوَّرَه كما هو ونفخ فيه من روحه من أول مرة، إذًا ليس لازمًا أن يمر الخلق بمراحل؛ فالله عز وجل خبير. الإنسان الذي لا خبرة له قراراته تظل خطأ فترة، فلو كنت تعمل مع إنسان ليس لديه خبرة تقلق أن يضيعك، لو أنت وضعت رأس مال مع شخص وليس لديه خبرة تخاف أن يضر بك، أو ينفذ فكرة لا يعرف أبعادها ثم يفعلها فيضيع كل شيء! لكن العامل لدين الله عندما يضع رأس ماله: عمره، ودمه، ونفسه، وحياته، وبذله، ومجهوده مع الله يطمئن. الله عز وجل يعلم عاقبة الأمور، لا يعلم عاقبة الأمور فقط، بل يُقدِّر الله عز وجل عاقبة الأمور؛ لذلك هناك آية {وإلى الله عاقبة الأمور}[لقمان ٢٢] وآية {ولله عاقبة الأمور} الله عز وجل

يملك عاقبة الأمور، فهو الذي يُقدِّرها، هو الذي يُدَبِرها سبحانه وتعالى، {وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير}.

بعد هذا الشوط يكتسب الإنسان قوة نفسية هائلة: الاتصال بالله، معرفة ربوبيته، لا يرى في الكون إلا الله، أصبح يقول: أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأيضًا ينتقل وأعوذ بك منك، قمة اليقين والطُّمأنينة.

يذهب يقول لهم: {قل أي شيء أكبر شهادة}؟ وهم ماذا يقولون؟

حتى لا ننسى سياق الأنعام المقدمة ثلاث آيات: الله -عز وجل- يملك كل شيء، قالوا له نريد آية قرأ عليهم القرآن لم يؤمنوا؛ فقال الله -عز وجل-: {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام ٤].

حوار:

قالوا له لا يعجبنا القرآن نريد آية حسية،

قال لهم: انظروا إلى آثار السابقين الهلكى،

قالوا له: لا، نريد آية حسية ثانية: كتاب من السماء،

قال لهم: لو نزل عليكم كتاب من السماء ولمستوه بأيديكم لن تؤمنوا،

قالوا له: نريد ملك من السماء،

قال لهم الملك شيء من اثنين: إما يأتي ملك في صورة ملك وهكذا ينتهي التكليف وينزل العذاب لو لم تؤمنوا، أو ملك في صورة بشر.

إذًا نحن هكذا دخلنا في دائرة مغلقة ...سيقول لك وما يؤكد لنا أن هذا ملك في صورة بشر؟ ربما بشر ويخدعنا، نريد آية، يا أيها الملك الذي في صورة بشر نريد آية، سيقول لهم: الآية التي معي القرآن، إذًا عدنا ثانيةً لنقطة البداية "القرآن".

لذلك قال لهم: اذهبوا {قل سيروا في الأرض} ليس عندي غير هذه الآية {ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين}[الأنعام ١١].

ثم جاء شوط في معرفة الله -عز وجل- قالوا له ما زلنا نريد أحدًا يشهد لك ويشهد للقرآن، قال لهم ما أكبر شيء يشهد لي؟ يُقال إن كلمة "شيء" أوسع كلمة في اللغة، {قل أي شيء أكبر شهادة} هم يقولون مَنْ يشهد لك؟ قال لهم ما أكبر شيء في الكون يشهد لي؟ ولم ينتظرهم يجيبون وقال لهم: {قل الله}، وكما قلتُ سورة الأنعام فيها كلمة "قل" كثيرًا، إذًا فيها الجانب الإعلامي والدعوي قوي، فأنت دائمًا تبادر بالجواب: {قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله}[الأنعام ١٢] تسأل وأنت تبادر بالجواب، قلنا المبادرة بالجواب هذه لتفحمه ولتزيل الركام الذي على الفطرة، أي لو تُرك وفطرته لقال هذا الجواب: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله} فطالما أن الله -عز وجل- هو الكبير -سبحانه وتعالى- وهو الأعلى سبحانه وتعالى فهو {شهيد بيني وبينكم} أي هو شهيد بيني وبينكم، ألستم تريدون أحدًا يشهد لي؟

يُروى في سبب نزول هذه الآية أنهم قالوا له ابحث عن أحد يشهد لك، لا يوجد من يشهد لك حتى أهل الكتاب يشهدون ضدك، ولذلك الآية التي بعدها ما هي؟ {الذين آتيناهم الكتاب}[الأنعام ٢٠] سترد عليهم لأنهم وقفوا مع المشركين ضد النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن هذا هو المنتظر منهم، إذ أنهم أهل كتاب ونزل كتاب وهو القرآن، كان من المتوقع أن يقفوا مع الموحدين أمام الوثنيين، لكن المصالح والبغي الذي بينهم جعلهم يختارون تفضيل الصنم على التوحيد والعياذ بالله.

{قل أي شيء أكبر شهادة قل الله}[الأنعام ١٢] بعض المفسرين قال أنه يستحب الوقوف هنا؛ أو تقول: {قل الله شهيد}، لو قلت {قل الله شهيد} ستكون كلمة شهيد خبرًا؛ لو قلت {قل الله} أي الله عز وجل هو أكبر شيء في الكون، ثم تقف وتقول {شهيد} أي هو شهيد بيني وبينكم. كيف يشهد الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم أنه صادق؟ هل سيُنزل ملائكة؟ هل سينزل ملائكة تشهد؟! مثل آية {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب}[الرعد ٤٣] آخر سورة الرعد، وفي قراءة -وأظنها خارج العشر- {ومِن عِندِهِ علم الكتاب} أي أني لم آتي بعلم الكتاب هذا من عندي بل هو من عند الله . إذًا الشهادة كيف ستكون؟ كيف يشهد الله للنبي صلى الله عليه وسلم؟ أهم شهادة في تكملة الآية: {شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن}[الأنعام ١٩] إذًا أكبر

شهادة أنه نزل لي القرآن، ماذا تريدون أكثر من هذا؟ نحن ندور ونرجع لنفس القضية وهي أنه ليس معي شيء غير القرآن!

من أول آية بدأ فيها الإعراض {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم} وهو القرآن، ويستمر سياق الآيات إلى أن نصل لآخر آية في سورة الأنعام والنتيجة أنه ليس عندي غير القرآن. {وأوحي إلي هذا القرآن} هذه أكبر شهادة من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: يشهد له بالفطرة، أي ربنا سيشهد لي عندما أقرأ عليك القرآن ستشعر بداخلك أن هذا الكلام صحيح، هذا الإحساس من الذي وضعه بداخلك؟ ربنا سبحانه وتعالى، هذه هي شهادة الله عز وجل. وقيل: يشهد له -لكن هذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم- بالمعجزات الحسية التي ستروها: مثل نبع الماء من بين أصابعه صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انشقاق القمر وغير ذلك.

من الممكن أن يقول لي أحدهم: أنا غير معترف بالشاهد الذي أنت استشهدت به ولا أعترف بالله!

أنبه هنا على أمرين: المشركون يؤمنون بالله، قال الله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله}[الزمر ٣٨] أي أنهم لا ينكرون وجود الله إنما ينكرون البعث وينكرون الوحي، فهنا أنت تخاطب أناسا مشركين وليسوا جاحدين ولا ملحدين. حتى لو كان ملحدًا؟ نعم حتى وإن كان ملحدًا أنا أقول له: أنا إلهي يشهد لي وأنت سترى، إذا ناقشت ملحدا سأقول له: والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، الدليل أنني على الحق هو أن إلهي سيتم هذا الأمر بعز عزيز أو بذل ذليل سيتم هذا الأمر، في حياتي أو في حياته أو حتى في حياة الأجيال القادمة... أنا أقسم أن هذا الأمر سيتم، وأقسم أن القرآن لن يُحرف وأقسم أن القرآن سيبلغ الآفاق، أنا أقسم على ذلك. هذه الثقة تجعلك تبدو أنك ولا شك أتيت بهذا الكلام من مصدر غيبي.

لذلك مثلما قلنا في سورة طه لما جاء سيدنا موسى عليه السلام وذهب إلى فرعون {اذهبا إلى فرعون إنه طغى* فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى* قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى* قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى* فأتياه فقولا إنا رسولا ربك...}[طه ٤٣-٤٧] أليس فرعون غير معترف أصلاً بالله ! شخص يقول أنه ربهم، فماذا قالا له؟ {إنا رسولا} لم يقل (ربي) بل {إنا رسولا ربك} نحن قد أتيناك من عند سيدك، أسلوب الضغط هذا يجعله يتأثر {إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك..} انظر إلى التكرار! إذا سمعت الكلام وأطعت لن يصيبك

أي مكروه {والسلام على من اتبع الهدى* إنا قد أوحي إلينا أن العذاب...}[طه ٤٧] وأما إذا لم تطع هذا الكلام فسيعذبك ربنا {أن العذاب على من كذب وتولى}[طه ٤٨]. فرعون لما خاطبه بهذا الخطاب ماذا قال؟ {قال فمن ربكما..}[طه ٤٩] اهتز وقال لهما أنتما تابعان لمن؟ ومن وراءكما؟ من المؤكد أن وراءكما أحدا بما أنكما تتكلمان بهذه الثقة.

وهذا الأسلوب القرآني المتبع دائمًا: الضغط النفسي على المخالف، وهو أن تكلمه عن ما يشك فيه على أنه وقائع. هذه القاعدة مهمة جدا في القرآن، القرآن يستعمل أسلوب ضغط نفسي على المخالف، فتتكلم معه عن الأمور التي ينكرها على أنها واقع حقيقي ولست تناظره فيها. فتكلمه مثلًا عن البعث بصورة الماضي، ليس هذا فقط بل تصور له شكله وهو في الجحيم، يأكل من شجرة الزقوم ويشرب من الحميم ويصب فوق رأسه من عذاب الحميم، كل هذا أنت تخاطب شخصًا ما حالته؟ هذا الذي تخبره بتفاصيل الأخرة هو شخص منكر للبعث. فتخاطبه على أنها وقائع سوف تحدث وسوف تمر بك شئت أم أبيت، إنكارك لها لا يعني أنها لن تحدث، بل ستحدث رغما عنك. {ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون}[الجاثية ٢٧] حينئذ سنرى من الذي كان على الحق ومن الذي كان على الباطل.

فالآيات الخاصة بمعرفة الله تعطيك ثقة ويقينًا، تجعلك تفعل مثل سيدنا موسى عليه السلام وهو ذاهب إلى فرعون في قمة القوة في الطرح.

{قل أي شيء أكبر شهادة}؟ تقول له: أي شيء في الكون أكبر؟ فقلت له: {قل الله}، أنت أجبت وقلت له "هو شهيد" -{ شهيد بيني وبينكم}، بماذا يشهد لك الله؟ يشهد له بأهم شيء وهو القرآن {وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به} ليس أنتم فقط، ولكن كل من بلغه القرآن. هنا لفتة، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المناظرة سحب نفسه خارج المناظرة وترك المناظرة بين الناس وبين القرآن، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عمره محدود بزمن وسيموت، لكن القرآن غير محدود بزمن، لذلك قال لأنذركم أنا به ومن بلغه القرآن، وهذا يعني أنه سواء ذهبت بنفسي للناس أو أن القرآن وصل للناس ولست أنا من بلغهم، في الحالتين سوف يكون حجة عليهم، ليس شرطا أن أبلغهم أنا. لذلك قال: {لأنذركم به} أي لأنذركم أنا به {ومن بلغ} أي: ومن سيَبلغه القرآن، أيًّا كان المبلِّغ وأيًّا كان المبلَغ، الحجة إذًا بماذا تقوم؟ الحجة تقوم ببلاغ القرآن.

لذلك: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله}[التوبة ٦]؛ هذه هي الحجة. وإذا لم يفهم، فدورنا أن نفهمه كلام الله. إذًا دورنا مع الناس أن نفهمهم كلام الله؛ حتى تقوم عليهم الحجة، حتى ننذرهم؛ كما قال تعالى {لأنذركم به ومن بلغ}، أي: ومن بلغه هذا القرآن. فكأنك تقول له: أكبر شهادة من الله لي أنه أنزل لي معجزة باقية إلى يوم القيامة، وهي معجزة القرآن، ومن إعجاز القرآن أن القرآن نفسه باقٍ إلى يوم القيامة، وأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن. إذًا؛ شهادة الله للنبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن: أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن، وأن القرآن لن يحرف إلى يوم القيامة، وأن القرآن باقٍ إلى يوم القيامة وأثره باقٍ إلى يوم القيامة... فهذه أكبر شهادة للنبي صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بعد هذه القوة ماذا يقول لهم؟ -بعد أن قال تعالى: {قل لمن ما في السماوات والأرض...} {قل أغير الله أتخذ وليًا...}- يقول تعالى: {أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى}: أبعد كل ما قلته لكم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟! أمازلتم مصرين وتشهدون أن هناك آلهة أخرى في الكون؟! لو أنهم قالوا ذلك، بماذا سترد عليهم؟ {قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون}[الأنعام ١٩].

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطة مهمة في مسألة: {قل لا أشهد}، وهي مسألة عدم شهود مواقف فيها شرك. عندما يكون هناك مجلس، وهذا المجلس يشهد أن مع الله آلهة أخرى، حينها عليك أن تقول: لا أشهد! بكلامك أو بفعلك. وهذا الموقف متكرر معنا في سورة الأنعام -أظن أنه تكرر ثلاث مرات:

- في قوله تعالى: {قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم}[الأنعام ١٥٠]
- وقوله تعالى: {فإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين}[الأنعام ٦٨]
- وقوله تعالى: {إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا}[الأنعام ٦٨]

فالذين يخوضون في آيات الله، أو الذين يشركون مع الله، أو الذين يحرّمون ما أحل الله، هؤلاء الثلاثة جاء ذكرهم في سورة الأنعام. فإذا كان المجلس فيه شرك، أو فيه خوض في الآيات و تحريف للقرآن، أو فيه تحريم لما أحل الله: فليس لديك عذر في أن تتواجد، يجب ألا تشهد هذا المجلس! ما معنى هذا الكلام؟

ربما يقول قائل: هل هذا معناه أنه لا يجوز قطعا المشاركة في مجلس شعب أو في دستور لما فيه من شركيات؟ نحن نقول أن هذا أحد الأقوال، فالمسائل التي فيها شركيات لا يجوز لك بأي حال من الأحوال أن تشارك فيها، كما أن مسألة المصالح والمفاسد لا تدخل في هذا الباب. وبعض الناس يقولون: لا... هناك فارق بين أن تشارك في أن تضع هذا الشرك، وبين أن تخفف هذا الشرك. فمثلًا لو أن هناك دستور أو وثيقة أو مجلس وفيه شركيات تصل إلى تسعين في المائة، وأنت شاركت لتخفف من تسعين في المائة إلى ثلاثين في المائة: فيمكنك أن تشارك ولكن بشرط: **أن تبينك لا يتوقف على قدر تطبيقك!**

أكرر هذه النقطة: يجب عليك أن تبين أن هناك شركيات، وأن هذه الشركيات مما حرمها الله عز وجل، وأخبرنا أنها حرام، وأننا اضطررنا للجلوس هنا، ونحن نرفض هذا، ولكن لأنها ميتة مضطر نعبر بها إلى مرحلة قد تكون مرحلة وسيطة للوصول للخير الأمثل. إذًا هنا أنت تصل لمرحلة ما مع التبيين، لكن جلوسك من غير تبيين يضفي شرعية على ما يحدث. فإذا أردت التغيير بعد ذلك، قد يقول لك: لا، لقد وافقت من قبل، وها هو اسمك، فأنت من الذين وافقوا على الوثيقة. فإذا أردت أن تنقض، يقول لك: لا؛ لأنك لم تبين! لا بد أن يكون التبيين كاملًا، فنحن((**نُعذر في التطبيق، لكن لا نُعذر في التبيين**))

وقد يقول قائل: أنت تقول أننا لا نعذر في التبيين ولكن نُعذر في التطبيق {لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها}[البقرة ٢٨٦]، لكن ألم يقل الله: {إلا من أكره وقلبه مطمئن}[النحل ١٠٦]؟ فهو سينطق بكلمة الكفر، وسيبين عكس المطلوب، كما ترخص بعض العلماء في مسألة خلق القرآن. لكن نقول: لا يجوز للأمة أجمع أن تفعل ذلك! هذا عذر وترخص لبعض الأفراد، إنما إذا قامت الأمة كلها بفعل ذلك!! هكذا سيضيع الدين! لذلك رأى أحمد بن حنبل أنه ليس لديه رخصة. فهو عالِم ثقة، وقد ترخص كثير من العلماء، فهو هنا ليس لديه رخصة في أن يتكلم بهذا الكلام. إذًا الأمة جمعاء لا عذر لها في تأخير التبيين عن وقت الحاجة. وهذه هي القاعدة الأصولية المشهورة:

((لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة)) لا يجوز تأخير البيان... البيان: سواء هو حلال أو حرام، "عن وقت الحاجة" وقت الحاجة هو شهودك مجلس فيه شرك. ولذلك لا بد أن تقول: لا أشهد.

أنا أطيل في هذه النقطة لأنها هي التي جعلت البعض يقول أن أفعالنا في الفترة الأخيرة متسمة بالتناقض، فيقال: عندما تكون الأمور في صالحكم تقولون: نعم، وعندما تكون عليكم تقولون: لا. فعدم وضوحنا من البداية وضوحًا كاملًا يجعلنا –ظاهريًا– متناقضين. فلا بد من الوضوح من البداية !

فعندما تختار قانونًا أو دستورًا أو شخصًا وأنت تعلم أن هذا ليس هو الاختيار الأمثل وفيه دخن: فأنت تبين ذلك للناس حتى لا يتحول هذا الدخن إلى دين بعد ذلك، ثم يأتي الناس ويدينوا بالدخن الذي طرحته أنت، وتحاول عبثًا أن تقول لهم أن هذا الاختيار ليس هو الأمثل! ((فلا بد من التبيين من البداية)) هذا توضيح لأمر التبيين الكامل.

أما الأمر الثاني الذي أريد أن أسقطه على الواقع من هذا المشهد: {قل لا أشهد} هناك فارق بين العجز عن نصرة المظلوم، وبين مواقف عملية فيها –ظاهريًا– شهادة وتأييد للظالم.

فمثلًا: موقف الحجاج مع ابن الزبير، وقتله لابن الزبير وصلبه له وإلقاء جثته في قبور اليهود: هذا ظلم بيّن، ومن العلماء من قال أن هذه فتنة. مع أن الحجاج لم يكن هو الخليفة وإنما كان واليًا عند الخليفة، والخليفة في هذا الزمان كان يقيم الشرع ويطبق الحدود، لكن كان عندهم جور وظلم، لكنهم على الرغم من ظلمهم وجورهم كانوا يحجون ويجاهدون لنصرة الدين، فهم لم يوقفوا تطبيق الحدود الشرعية. لكن كان هناك خلاف من هو الخليفة هذا أم ذاك؟ فحصل قتال بينهم، وكثير من العلماء قالوا أن الحق كان مع ابن الزبير. أيًا كان الخلاف، لكن الحجاج هنا كان ظالمًا وهو تابع لخليفة يطبق شرع الله ويقيم الحدود وهو جزء من خلافة إسلامية. فمواقف العلماء الذين اختاروا أن هذا فتنة وانعزلوا مثل ابن عمر؛ لم يكن هذا يُفسر أمام العامة أنه يُضفي شرعية على الحجاج أو أنه يؤيد فعل الحجاج على ابن الزبير. بدليل أنه لما صُلِب ابن الزبير ذهب ابن عمر ووقف عليه وقال كلامًا يوضح التناقض الذي لا يفهمه الناس ظاهريا. قال: "لقد كنت أنهاك عن هذا، لقد كنت أنهاك عن هذا، لقد كنت أنهاك عن هذا". كأنه يقول له: إنني كنت أخالفك في وجهة النظر. لكن بعد أن قال هذا أثنى عليه وقال: "والله ما علمتك إلا صوامًا قوامًا، والله لأمة أنت شرها– كما يقولون– لأمةُ خير". جمع بين الثناء عليه وبين أنه يخالفه في وجهة النظر. لكن ليس معنى أني مخالفك في وجهة النظر أني أؤيد ما فعله الحجاج فيك وأقول أنك تستحق هذا أو أن ظاهريًا أفعالي من سكوتي وجلوسي بجانب الحجاج يدل أنني أؤيد فعل الحجاج فيك؛ كلَّا. وبلغ الحجاج ثناء ابن عمر وعنَّفَهُ، لكن استمر ابن عمر على الثناء. وحاليًا يحدث مشهد يتلبس على الناس؛ هناك عالم سيقول على بعض المواقف أنها فتنة وينعزل، فانعزاله هذا واعتباره أنها فتنة لا يسمح له بمواقف عملية ظاهرها أنه يضفي شرعية على الظالم.

{قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}[الأنعام ١٩] سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له من يشهد لك؟ فأنت رجل معك كتاب، المفترض أن من يشهد لك هم أهل الكتاب، لكن نحن أميون. فذهبوا لأهل الكتاب- اليهود والنصارى- وسألوهم هل هذا الرجل -أي النبي صلى الله عليه وسلم- ذُكِرَ عندكم في كتبكم؟ فأنكروا. المشركون سألوا اليهود سؤالا آخر؛ هل نحن أفضل أم المسلمين؟ -هذه رواية ذكرها الإمام الطبري- فقالوا: هل نحن أفضل أم المؤمنين؟ وقالوا لليهود: إننا نصل الرحم ونسقي الحاج ونقري الضيف أما الدين الجديد فلقد فرق به بين الأب وابنه وقطع الأرحام؛ فما رأيكم؟ فاليهود قالوا: "والله لدينكم خير من دينه"! وقالوا هؤلاء أهدى كما في آية سورة النساء {هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}[النساء ٥١] هؤلاء: أي المشركين أهدى -والقول هذا لليهود- أهدى من الذين آمنوا سبيلًا! وبعض الروايات ذكرها الإمام الطبري: أنهم قالوا طالما أن ديننا خير من دينك فلن نصدقك إلا حين تسجد لهذه الأصنام!

فهنا يقول الله عز وجل أن هؤلاء الذين رفضوا أن يشهدوا للنبي صلى الله عليه وسلم {الذين آتيناهم الكتاب}[الأنعام ٢٠] هم {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} الذين لم يشهدوا للنبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء يعرفون أنه رسول كما يعرفون أبناءهم {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}[الأنعام ٣٣] ... كما قال تعالى{وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا}[النمل ١٤] طلبًا للعلو وطلبًا للظلم، فوقعوا في نفس ما وقع فيه المشركون؛ أنهم دمروا فطرتهم {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون}[الأنعام ٢٠]. وهذه الآية قد شرحناها بالتفصيل في المرة الماضية، قلنا أنه ليس معناها ما قاله بعض المفسرين أن "الذين لا يؤمنون هم الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة"! وإنما المعنى أنهم خسروا أنفسهم في الدنيا بتدمير فطرتهم فلم يعامل نفسه أنها نفس بشرية {الذين خسروا أنفسهم} فبالتالي {هم لا يؤمنون} أي ينتج عن إهمال الإنسان نفسه -من السماع لكلام الله- أنه لا يؤمن.

النفس البشرية محتاجة لأن تعاملها برفق، والرفق بالنفس البشرية يكون بأن الإنسان يسمح لنفسه أن ترى الهدى والعلم؛ فلا يعامل نفسه كما فعلت المرأة التي دخلت النار في هِرَّة! فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[٣]، فهو لا يتعلم الدين، ولا يسمح لنفسه بأن يسمع كلام الله،وحين

[٣] عن أبي هريرة " دخلت امراة النار في هِرَّة! أو هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت في رباطها هزلا" شعيب الارنؤوط(١٤٣٨ه) تخريج المسند ١٠٥٠١. [صحيح].

يأتيه من يكلمه عن الله عز وجل؛ يُصِم أذنيه حتى لا يسمع ولا يسعى ليتعلم دينه {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون}.

فنفس المرض الذي وقع فيه المشركون وقع فيه اليهود حرصًا على الدنيا. الرابط المشترك دائمًا بين الاثنين هو الحرص على الدنيا. والله عز وجل جمع هذا في سورة البقرة {ولتجدنهم} أي اليهود {أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا}[البقرة ٩٦] فالرابط المشترك بين اليهود والمشركين هو الحرص على الدنيا. لكن حين نعقد مقارنة بينهم أيهم أحرص على الدنيا؟ سنجد أنهم اليهود {ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا} أي هم أحرص من الذين أشركوا على الدنيا.

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[الأنعام ١٩-٢٠]. {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} هم اليهود والنصارى الذين رفضوا أن يشهدوا للنبي صلى الله عليه وسلم.

مما قرأت في معنى {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ} أنهم سيبذلون مجهودًا ضخمًا للمعرفة التفصيلية لهذا الدين لأجل أن يَنقدوه، مثل ما يفعل المستشرقون؛ يدرسون الدين دراسة تفصيلية ليَنقدوه من الداخل. دائمًا من يَنقُد من الخارج هذا يَرجم من مكان بعيد فلا يصيب، لكن المشكلة الأكبر فيمن يَنقد من الداخل!

لذلك ربنا -عز وجل- جمع ما بين الطائفتين؛ السورة في غالبها تخاطب المشركين وهي مكية، لكن يوجد تعريض لأهل الكتاب في ثنايا هذه السورة في أكثر من موطن؛ فذَكَر الطائفتين {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} هؤلاء هم اليهود {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} وهؤلاء هم المشركون؛ كذبوا بالآيات التي تُعرض عليهم باستمرار، كما في بداية السورة {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}[الأنعام ٤] فهم لا يريدون سماعها، أما اليهود فافتروا على الله الكذب وحرّفوا دين الله عز وجل. وبدأ الله عز وجل باليهود لأنهم أشد إجرامًا، فأهل الدين المفسدون أشد إجرامًا من العصابة الشهوانية التي تريد الدنيا، أهل الدين المفسدون المنحرفون عن الدين أشد إجرامًا من أهل الشهوات،

وأولئك يكونون عذرا لأهل الشهوات لكي يسيروا في الطريق المنحرف. ودائمًا عندما كان المشركون يريدون أن يستدلوا على صحة ما هم فيه كانوا يذهبون إلى اليهود والنصارى.

وهذا مذكور في القرآن في أكثر من موطن؛ كما في سورة النساء: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}[النساء ٥١] ففي هذا الموطن ذهبوا إلى اليهود يسألونهم من أفضل نحن أم المسلمون؟ فأجابهم اليهود أنتم أفضل!.

وكذلك في سورة ص: {وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص: ٦-٧] قيل {الملة الآخرة} هي آخر ملة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم... من هم؟ النصارى... والنصارى قالوا بالتثليث... قال المشركون: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥] وماذا قالوا بعدها؟ {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ}[ص ٦] يقصدون: حتى الملة الآخرة تقول أن الآلهة ثلاثة فكيف تقول أنت أنه واحد؟! فاستدل المشركون بأهل الدين المفسدين على باطلهم، ودائمًا كل واحدٍ من أهل الباطل يبحث عن أحد من أهل الدين يدعمه.

سأذكر لكم نقطة مهمة جدًا كنت قرأتها في كتاب رائع اسمه [سنن الله في الأمم] للشيخ صالح الحميد، يقول فيه أنه دائمًا الدول الفاسدة الظالمة لا بد أن تقنع الناس أنها تعيش على مبدأ ديني، وهذا على مدار التاريخ؛ حتى إذا استنصَّروهم- أي طلبوا النصرة من الناس- يُشعِرُوهم أن الدين يسقط. لذلك قال لهم فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: ٢٦]، يعني سيغير هوية مصر {أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}[غافر ٢٦] هذا يحدث من قديم منذ أيام سيدنا نوح عندما أرادوا أن يثوروا على سيدنا نوح ماذا قالوا؟ {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ}[نوح ٢٣] ولم يكتفوا بـ{آلهتكم} بل أتوا باسم كل إله {وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}[نوح ٢٣] يقولون لهم احذروا أن تتركوا آلهتكم ودينكم. تخيل شخصًا يريد أن يحمّس المسلمين فيقول لهم احذروا أن تتركوا الصلاة والصوم والحج والطاعة، فهم أيضًا أتوا بتفاصيل شركياتهم لأنهم يريدون أن يقنعوك أن هذا دين، لذلك قالوا {حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ}[الأنبياء ٦٨]، نحن لا نحرقه لأنه فاسد ولا لمشكلة سياسية أبدًا! بل لأجل ماذا؟ لأجل عقديته، لديه مشكلة في العقيدة ونحن ندافع

عن عقيدتنا {وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ} إذًا كان يحدث هذا دائمًا على مدار التاريخ كما ذكرنا مع سيدنا نوح وسيدنا ابراهيم وسيدنا موسى، دائمًا يريدون أن يجمعوا الناس على الدين، ولذلك لا بد أن تبحث الدول لنفسها عن عقيدة ولو فاسدة مثل إسرائيل وإيران، لا بد من إثارة الناس على عقيدة.

ولذلك تجد إيران تتعمد أن تصرف مصارف ضخمة على تهييج الناس تجاه العقيدة الشيعية، لأن دولتهم قائمة على العقيدة الشيعية هذه فتجدهم دائمًا يوفرون للناس رحلات العمرة بأسعار زهيدة جدًا ويرفقون معهم مرشدين عملهم أن يهيجوا الناس بالمشاعر والبكاء والقتل والتعذيب والتشريد وما حدث لهم، يُذْكِي عندهم هذه العاطفة، فأنت تعتقد أنه إنسان شهواني... لا، ولكنه صاحب عقيدة فاسدة.

كذلك الدولة اليهودية المحتلة لأرض فلسطين، فتجد أنهم لا بد أن يبحثوا عن عقيدة فاسدة، ومن الذي يقوم بهذا الدور؟ الذي ينصر السلطان الظالم هم أهل الدين المفسدين، لا يقدر أن يقوم بهذا الدور جيدًا إلا أهل الدين المفسدين لأن السلطان الظالم الطاغية ليست عنده هذه القدرة فلا بد أن يستعين بساحر ديني! (كان فيمن كان قبلكم ملكًا وكان له ساحر) [٤] كل ملك ظالم تجد له ساحر، والسحر نوعان: ساحر إعلامي، وساحر ديني يهيج العقائد الدينية الفاسدة عند الناس.

---

[٤] [عن صهيب بن سنان الرومي:] كَانَ مَلِكٌ فِيمَنكان قَبْلَكُمْ، وَكَانَ له سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قالَ لِلْمَلِكِ: إنِّي قدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكانَ في طَرِيقِهِ، إذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فأعْجَبَهُ فَكانَ إذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إلَيْهِ، فإذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذلكَ إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ: إذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وإذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ أَتَى علَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقالَ: اليومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فأخَذَ حَجَرًا، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِن أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِه الدَّابَّةَ، حتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخْبَرَهُ، فَقالَ له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي، قدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنَّكَ سَتُبْتَلَى، فإنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ، ويُدَاوِي النَّاسَ مِن سَائِرِ الأدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كانَ قدْ عَمِيَ، فأتَاهُ بهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقالَ: ما هَاهُنَا لكَ أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فإنْ أَنْتَ آمَنْتَ باللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ باللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فأتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إلَيْهِ كما كانَ يَجْلِسُ، فَقالَ له المَلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قالَ: رَبِّي، قالَ: وَلَكَ رَبٌّ غيْرِي؟ قالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الغُلَامِ، فَجِيءَ بالغُلَامِ، فَقالَ له المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بالرَّاهِبِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى، فَدَعَا بالمِنْشَارِ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ به حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلَامِ فَقِيلَ له ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به إلى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا به الجَبَلَ، فإذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وإلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا به فَصَعِدُوا به الجَبَلَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَرَجَفَ بهِمِ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا به البَحْرَ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ وإلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا به، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقالَ لِلْمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ به، قالَ: وَما هُوَ؟ قالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي علَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فإنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذلكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ علَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قالَ: باسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ=

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}[الأنعام ٢١] فبدأ باليهود المفسدين، {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}[الأنعام ٢١]، {جميعًا} قيل المشركين واليهود، وقيل: المشركين وشركاؤهم، وهذا أنسب للسياق. {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} وهذا السؤال –سواء تصريحًا أو تلميحًا– تكرر في القرآن كثيرًا وتكرر في الأنعام، أين هم شركاؤكم؟! هذا سؤال تبكيتيّ، ألست كنت تقول أن الآلهة ستنصرك! {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[الأنعام ٢٢] فيقول الله عز وجل: {ثم لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}[الأنعام ٢٣].

فتنتهم:

{ثم لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} هذه الآية فيها إشكال؛ والمقصود بالإشكال أن العلماء يجدون الآية ظاهريًا تتعارض مع بعض الآيات فيحلون هذا الإشكال، وهذه أحد أفكار بعض الكتب مثل كتاب الإمام الشنقيطي صاحب التفسير (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، دفع إيهام– أي توهم–لأنك قد تعتقد أن هناك اضطراب ما بين آيات الكتاب. فقالوا هذه ظاهرها متعارض مع قول الله عز وجل {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}[النساء٤١]فهم هنا يحلفون {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} فهم يكذبون على الله...صحيح؟ نعم؛ ظاهر الآية يقول أنهم يكذبون، ولكن في آية {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} معناها أنهم لن يخفوا شيئًا عن الله، فكيف الجمع إذًا؟

فنقول أولًا: ما معنى {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}؟ لو أزلنا "لم، وإلا" من الآية –مثلما نقول {"وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ"}[ال عمران ١٤٤] كانت أصلها "محمد رسول" ثم جاء التعبير في صيغة الحصر والقصر– فلو أزلنا "لم وإلا" هنا يصبح المعنى "فتنتهم وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" ما معنى هذا؟ كلمة {فتنتهم} كثير من المفسرين قال أن الفتنة هنا بمعنى الاختبار، وما هذا الاختبار؟ اختبارهم كان السؤال، لما سُئلوا يوم القيامة {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ} كانت إجابتهم {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مشرِكِينَ} أي أنهم تنصلوا من الإشراك. فحاول العلماء إعمال الآية على الظاهر فقالوا أن الفتنة هنا بمعنى السؤال والاختبار، السؤال هو الذي في الآية التي قبلها {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ} وكانت الإجابة {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ}–أي

=الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ، قدْ آمَنَ النَّاسُ، فأمَرَ بالأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقالَ: مَن لَمْ يَرْجِعْ عن دِينِهِ فأحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قيلَ له: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ ومعهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقالَ لَهَا الغُلَامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي فإنَّكِ علَى الحَقِّ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٣٠٠٥ • [صحيح]

إجابة السؤال- {إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} هذا هو المعنى -ودعك الآن من التعارض الذي ذكرته- فالآن الآية واضحة... عندما سُئِل يوم القيامة كفر بشركائه، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة لأن الله قال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[الأنعام ٢٢] {ثُمَّ لَمْ يكن...}جواب هذا السؤال: أنهم تبرأوا من الشركاء. الآن فقط علموا أن الله حق! لماذا لم يكذبوا على الله؟ قال الإمام ابن عباس: هذا في موطن وهذا في موطن آخر، في موطن سوف يرون أن المؤمنين عندما قالوا إنا كنا مخلصين ولم نكن مشركين فنجوا، فيقلدوهم ويقولوا {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} فيُفضحوا، فعندها{وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} فيعترفون بكل شيء.

نريد أن نفهم هذه الأقوال في ظل سياق الآية...

فالقول الأول: ثم لم يكن جواب السؤال، ما هو هذا السؤال؟ {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ} جواب السؤال كلمة (فتنة)، ما معناها؟ معناها اختبار أو سؤال، ومحذوف من السياق كلمة "جواب"، أي أن جواب سؤال {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ}

هو: أنهم كفروا بشركائهم عند العذاب، أي أنهم ظلوا يعبدوهم ويعبدوهم وفي الآخرة تخلوا عنهم، هذا معنى الآية.

المعني الثاني لكلمة (الفتنة) أنها تعني الاختبار في الدنيا، أي أنهم كانوا مفتونين بشركائهم ويحبونهم ويعظمونهم في الدنيا...ولكن في الأخرة كفروا بهم بمعنى ثُمَّ لَمْ تَكُنْ عاقبة فِتْنَتُهُم-محبتهم للشركاء وتعظيمهم-في الدنيا {إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} هذا القول في الآخرة.

إذًا هناك ثلاثة أقوال لتفسير هذه الآية:

الأول: أن حدوث هذه السؤال والاختبار و القسم في الآخرة، الفتنة هنا ما معناها؟ معناها إجابة الاختبار

{إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}"أي لم نشرك بهم في الدنيا"

المعنى الثاني: أن الفتنة تكون في الدنيا والإجابة تكون في الآخرة، الفتنة في الدنيا بمعنى ثم لم تكن عاقبة عبادتهم وحبهم للأصنام إلا أنهم تبرأوا منهم يوم القيامة. وله مثال في اللغة العربية. "والله ما كانت فتنتك

بفلان إلا أن كفرت به" مثلًا أحد الموالين لبشار ويحبه ويعظمه ويسجد له ويقول هو الذي سينقذنا، فإذا سقط بشار قال أنا دائمًا أقول أنه سيسقط بسبب أفعاله السيئة ويتنصل منه، ماذا نقول له؟ والله ما كانت فتنتك ببشار إلا أنك تنصلت منه، بمعنى إن هذه نهاية حبك ومؤازرتك لبشار أنك تبرأت منه.

أهل الإيمان بسبب ارتباطهم بالله عز وجل نجاهم الله عز وجل يوم القيامة، لكن هؤلاء لما كانوا مفتونين بالأصنام في الدنيا تبرأوا منهم يوم القيامة، بمعنى هذه نهاية حبكم للأصنام في الدنيا.

ماذا تعني الفتنة هنا ؟ الفتنة هنا بمعنى عاقبة حبهم للأصنام في الدنيا، الفتنة بمعنى أنه مفتون بشيء ويحبه. الفتنة لها أصلين في اللغة؛:الحب والاختبار، أي أن عاقبة حبك الذي فُتنت به، الشيء الذي أحببته حب زائد عن اللزوم يُفقدك الوعي والعقل، عندما نقول أن شخص مفتون بامرأة ليس فقط يحبها، لكن يلغي عقله عند التصرف معها لأنها فتنته، أو مفتون بالدنيا بمعنى أن يحب الدنيا حبًا يجعله يصل لدرجة اضطراب الرأي... لذلك يقال أن الفتنة حب مع اضطراب في الرأي، أو خوف مع اضطراب في الرأي، أو اختبار مع اضطراب في الرأي.

إذا **القول الأول** هناك محذوف تقديره "جواب"، بمعنى: لم يكن جواب اختبارهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين بهم في الدنيا.

أما **القول الثاني** فهناك محذوف تقديره "عاقبة" بمعنى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ عاقبة فتنتهم بالأصنام في الدنيا–أي نتيجة حبهم للأصنام في الدنيا–هي أنهم كفروا بهم في الآخرة وقالوا والله ربنا ماكنا مشركين بهم في الدنيا

أما **القول الثالث**: أن الفتنة والقسم كان في الدنيا. إن أكثر شيء تسبب في ضياعهم وفتنتهم {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا} أكثر شيء فتنهم "ظنهم أنهم لم يكونوا مشركين"، كيف هذا؟ ظنوا كما قالوا {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}[الزمر ٣] وأيضًا قول الله عز وجل في آخر سورة يوسف {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}[يوسف ١٠٦] وقوله تعالى {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}[الكهف ١٠٤].

إذًا؛ القول الثالث معناه: أن أكثر شيء فتنهم في الدنيا وضيعهم ووصلهم إلى جهنم ماذا؟ هل الفلوس؟ هل الدنيا ؟ لا، لم تكن فتنتهم– إلا ظنهم {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، فتنته أنه معتقد أنه على الحق.

إذا نصل أن هذا هو نهاية عبادة الأصنام أو هذا هو الفهم الخاطئ للتوحيد أن يقول {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} ويتحاكم إلى غير الله لأنه لم يفهم معنى التوحيد {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}[التوبة ٣١] مثلما قيل في حديث عدي بن حاتم فقال: يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : نحن لا نعبدهم ولم نسجد لهم، فحصر العبادة في السجود خطأ، فالعبادة ليست محصورة في السجود فقط، بل أيضا في طلب النفع والضر {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ} واعتقاد مَن الذي يملك النفع والضر. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في صبيحة يوم مطير في حنين: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[٥].

من يعتقد اعتقاد يقيني أن الله ليس هو منزل المطر وإن هذه الأنواء من ذاتها خارجة عن إرادة الله هي التي تنزل المطر فهذا كافر.

إذًا؛ {وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} هذه أحد معاني قوله تعالى {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}.

الإشكال بين{وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} وقوله تعالى{وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}

قام بحله ابن عباس كما قلنا. والقول الثالث لا يوجد فيه إشكال لأن هذا القول معناه في الدنيا، فلا يوجد إشكال مع أنهم يوم القيامة {لا يكتمون الله حديثا}. والقولين الآخرين من جهة ما سيقال في يوم القيامة قالوا إن كل آية في موطن مختلف... فهذه في موطن وتلك في موطن آخر.

ولكن هناك معنى رابع وهو أن هذا القول {واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} يقصد به أن الفطرة ستنطق يوم القيامة بطبيعتها، أي أنهم اعترفوا حينما شاهدوا كل شيء. مثال: حالة المؤمن الفقير إذا غمس غمسة في الجنة ثم قيل له: هل ذقت بؤسًا قط؟ فقال: والله ما ذقت بؤسًا قط، فهو يحلف بالله هنا وهذا ليس كذبا، بل إن الغمسة قد أنسته ما حدث في الدنيا. ولذلك –في الآية {واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}– فمشاهد يوم القيامة أنسته الذي كان يفعله في الدنيا، لما رأى أن الله يملك كل شيء، وكل العبيد

[٥] عن زيد بن خالد الجهني : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب). مسلم(٢٦١هـ)، صحيح مسلم ٧١. [صحيح].

خاضعين لله، وإبراهيم يجثو على ركبتيه يقول: "يا رب سلم سلم"[٦]، والذين أشركوا يجثون على شفير جهنم، عندما رأى كل هذه المشاهد قال {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} فهو لما قالها لا يقصد بها الكذب. ولكن هناك آيات في القرآن تدل على أنهم يحلفون كذبا يوم القيامة مثل ﴿يَومَ يَبعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحلِفونَ لَهُ كَما يَحلِفونَ لَكُم وَيَحسَبونَ أَنَّهُم عَلى شَيءٍ أَلا إِنَّهُم هُمُ الكاذِبونَ﴾ [المجادلة ١٨]

ومن أجل ذلك فإن ترجيح ابن عباس هو الأولى، أن هذا موطن وذاك موطن غيره. فالمشرك يعتقد أن الكذب على الله سيكون مثله مثل الكذب على الناس {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أنفسهم}[الأنعام ٢٤] لم يقل: كيف كذبوا على الله!، مثل {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم}، هو المسؤول عن تضييع نفسه، لأن نفسه كبشر كانت تحتاج إلى إله، ولكنه ضحك على نفسه وكذب عليها، قال لها أنا سأجد لك إله، {كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}، النفس البشرية تحتاج إلى الله عز وجل لتسجد له وتلجأ له. النفس البشرية إلى ماذا تحتاج؟ إلى إله، ولذلك المشرك هنا يكذب على نفسه، ويخبرها أن هذا الصنم سيحل مشاكلها! أو أن فلان هذا سييسر له أموره، وبالتالي فهو كذب على نفسه حتى خسرها {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} ...وفي النهاية من كان يظن أنه سينفعه ويطمئن نفسه بوجوده أين ذهب؟ لقد تركوه {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}. كلمة "ضل" أصلها يقال في اللغة "ضل اللبن في الماء" عندما تقوم بوضع القليل من اللبن في إناء كبير من الماء ستجد أن اللبن ضاع بداخل الماء هذه هو المعنى المقصود هنا. عندما يأتي المشهد الذي يتخلى عنك هذا الشخص وتبحث عنه فلا تجده هذا هو المشهد هنا {ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

{ومنهم من يستمع إليك..}[الأنعام ٢٥] هنا يأتي صنف جديد من المشركين. قلنا أن الصنف السابق منهم في آية {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}[الأنعام ٤] {مُعْرِضِينَ} هذا كان نوع من المشركين. ولكن في آية {ومنهم من يستمع إليك..} يذكر صنف آخر من المشركين أتوا لكي يسمعوا، فلماذا أتوا، وما هي أغراضهم؟ هذا ما سنعرفه في الدرس القادم إن شاء الله.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله خيرًا.

[٦] الألباني. صحيح الجامع .[صحيح]